القلب في الجملة القرآنية

بين الاستعمال القرآني والتأويل اللغوي

د. طلال يحيى إبراهيم الطوبجي(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يخفى على المطلع على مصنفات أسلافنا النحوية أنّ المفردة قد استأثرت بعناية النحاة اكثر من الجملة؛ ولهذا السبب بقيت مسائل عديدة تتعلق بالجملة وبنائها بحاجة إلى دراسة متأنية تكشف عن مسلك العربية الدقيق في بنائها.

ولعلّ من المسائل التي لم تحسم مسألة القلب في بناء الجملة العربية، ولا سيما في الاستعمال القرآني الكريم، بوصفها ظاهرة أسلوبية على مستوى التركيب.

إنّ التباين الشديد في أقوال القدماء في هذا الموضوع دفعنا إلى البحث فيه، قصد التوصل إلى وجهة نظر مقبولة إن شاء الله.

1. **في المفهوم:** لا يخرج مفهوم القلب في الجملة – كما يرى ابن السرّاج (ت 316هـ) – عن "وضع الكلام في غير موضعه، وتغيير نضده"(1).

- والقلب بهذا المفهوم يلتقي التقديم والتأخير بين مكوّنات الجملة من جانب، ويباينه من جانب آخر. فأما وجه الالتقاء فواضح، وذلك بأن تتخلى وحدة لغوية عن موقعها في الجملة لوحدة أخرى، فيحدث بينهما ما يسمى: بالتبادل الموقعي.

(*) أستاذ مساعد- كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) الأصول في النحو 3/ 463، وقريب منه ما رآه حازم القرطاجني من أن القلب هو تخالف وضع الإسناد. ينظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ص 174.

وأما وجه الخلاف بينهما فيمكن في أنّ الوحدة اللغوية التي تغادر موقعها في التقديم أو التأخير تبقى محافظة على حركتها الإعرابية، فلا يُحْدِثُ التقديم حينئذ تغييراً في الوظيفة النحوية، أما في القلب فيحدث العكس تماماً، إذ تتغير الوظيفة للوحدة اللغوية بتغير حركتها الإعرابية، وهو ما اصطلح عليه سيبويه (ت 180هـ) بالقلب(2)، ونعته المبرّد (ت 285هـ) بالتحويل (3)، وعبّر عنه الصفّار البطليوسي (المتوفى بعد 630هـ) شارح كتاب سيبويه بـ(قلب الإعراب)(4)، في حين نعته ابن عصفور (ت 669هـ) بـ(إبدال الحكم من الحكم) (5)، وهناك من يسميه أيضا بـ(المُزال عن جهته)(6)، أو بـ(القلب المعنوي)(7).

2. **في الأسباب:** يجدر بنا بعد تحديد المفهوم أن نعرض للأسباب التي حدت النحاة إلى توجيه الكلام على القلب، وهو ما لم يعرض له الدارسون بالتفصيل حسب علمنا، وقد استطعنا استشفاف أهم هذه الأسباب من خلال التأمل في النصوص التي حُمِلَتْ على هذا التوجيه، وهي:

أ. **القول بالقلب لتوجيه دلالة الأداة:** ويحدث ذلك حينما ينكر عدد من النحاة معنى معيناً لأداة ما، ويكون ذلك المعنى ظاهراً، فيضطرهم ذلك إلى اللجوء إلى القول بالقلب، فقد أنكر قوم من النحاة – كما يذكر ابن هشام (ت 761هـ)- مجيء (من) لبيان الجنس، فحملهم هذا على توجيه قوله تعالى: (فَاجْتَنِبُوا

---

(2) ينظر: الكتاب 50/2، 21/3، 83، 135، 137.

(3) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص 38.

(4) شرح كتاب سيبويه 2/ 564.

(5) ضرائر الشعر: ص 266.

(6) ينظر: الأضداد للسجستاني: ص72، ومقدمة رسالة الأضداد للمنشئ: ص17.

(7) الاتساع في اللغة عند ابن جني: 221.

الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)(الحج: 30) على خلاف الظاهر، فهناك مَنْ قال بالتقديم على معنى: فاجتنبوا من الأوثان الرجس، وهو عبادتها. فحملوا (مَنْ) على الابتداء، ثم افترضوا التقديم والتأخير، وقد نعت ابن هشام هذا التوجيه بالتكلف(8).

في حين ذهب بعضهم – كم يحكي ابن يعيش (ت643هـ) – إلى حمل الآية على القلب، لا على التقديم والتأخير، كما فعل السابقون، فقال: "وقد حمل بعضهم الآية على القلب، أي: الأوثان من الرجس، وفيه تعسف من جهة اللفظ، والمعنى واحد"(9).

والحق أن التوجيهين كليهما يتسمان بالضعف، إذ من المقرر عند الأصوليين "أنّ التزام التقديم والتأخير من غير ملجئ إلى التزامه خلاف الظاهر" (10)، وأما القول بالقلب فإنه اكثر بعداً، إذ فيه تفكيك لنظم التركيب القرآني، وضياع لسمو بلاغته.

وفي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُم)(المائدة: 6) ذهب بعضهم إلى أن الباء في قوله تعالى (وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُم) للاستعانة، وأن "في الكلام حذفاً وقلباً، فإن (مسح) يتعدى إلى المُزال عنه بنفسه، والى المزيل بالباء، فالأصل: امسحوا رؤوسكم بالماء، ونظيره بيت الكتاب(11):

كنَواحِ ريشِ حمامةٍ نجديّةٍ ومَسحتِ باللثتينِ عَصْفَ الإثمدِ

---

(8) مغنى اللبيب 1/ 354.

(9) شرح ابن يعيش 12/8.

(10) التفسير الكبير 7/ 42.

(11) البيت لخُفاف بن ندبة السُلمي، ينظر: شعره: ص 106، والكتاب 27/1.

... فقلب معمولي مسح"(12)، إذ الأصل: مسحت اللثتين بعصف الإثمد.

وهذا التوجيه للآية بعيد لسببين، أولهما: افتراض القلب والحذف، وكلاهما خلاف الأصل، إذ لا يصار إليهما إلاّ عند الضرورة. كما أن السياق لا يساعد على هذا التقدير، إذ إن قوله تعالى: (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ) في صدر الآية يغني عن تقدير كلمة (الماء)، ولو افترضنا ضرورة التقدير، فمن الأولى أن يقدّر في صدر الآية عند ذكر الوجوه، لا في نهاياتها.

وأما الآخر: فإن باء الاستعانة هي "الداخلة على آلة الفعل، نحو: كتبت بالقلم"(13)، فإن استبعدنا تقدير كلمة (الماء) في الآية، سقط هذا التأويل. هذا فضلاً عن ظهور معنى الإلصاق في الباء، "وهو معنى لا يفارقها" (14)، ولذلك اقتصر عليه سيبويه (ت180هـ)، إذ يقول: "وباء الجرّ إنما هي للإلزاق والاختلاط، وذلك قولك: خرجت بزيد، ودخلت به، وضربته بالسوط، ألزقت ضربك إياه بالسوط. فما اتسع من الكلام فهذا اصله"(15).

ب. **القول بالقلب من اجل المحافظة على الدلالة الزمنية للفظة معينة:** ويتجلى ذلك مثلاً في موقف طائفة من النحاة من قول ابن الأحمر(16).

بتيهاءَ قفرٍ والمطيُّ كأنَّهـــــا   قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضـُها

فقد ذهب أغلب النحاة إلى وجوب تقدير (كان) في البيت بـ(صار)؛ ليصح

---

(12) مغني اللبيب 1/ 111-112.

(13) م. ن. 1/ 108.

(14) م. ن. 1/ 106.

(15) الكتاب 4/ 217.

(16) ديوان ابن الأحمر: ص 119.

المعنى، ولو قدّر بـ(كان) لفسد، وكان محالاً(17).

في حين حمل بعضهم البيت على "أن تكون (كان) على بابها، ويُدّعى القلب في الكلام، ويكون الأصل: قد كانت فراخها بيوضاً" (18). وقد استبعد عبدالقادر البغدادي (ت 1093هـ) هذا التوجيه؛ " لأن القلب لا يُصار إليه إذا وجد وجه آخر "(19).

وما ذهب إليه جمهور النحاة ومنهم البغدادي صحيح، ذلك أنّ الأساليب العربية وفي قمتها الأسلوب القرآني قد تصرفت في دلالة الفعل (كان) الزمنية (20)، ومنها أن يدل هذا الفعل على الصيرورة.

ج. **أثر التضاد في التوجيه على القلب:** ويكون ذلك بحمل التركيب على القلب من أجل حمل لفظ من الأضداد فيه على أحد معنييه، ويتضح ذلك مثلاً في توجيه الفرّاء (ت207هـ) قوله تعالى: (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۞ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) (الأعلى:4-5)، إذ قال: " إذا صار النبت يبيساً فهو غثاء، والأحوى: الذي قد أسوّد عن العتق. ويكون أيضا: اخرج المرعى احوى،فجعله غثاء، فيكون مؤخراً معناه التقديم"(21).

فالفرّاء يفيد من دلالة لفظة (أحوى) على الخضرة والسواد (22)، ليحمل التركيب على القلب، كي يتسنى حمل اللفظة على دلالة الخضرة. وقد نقل هذا

---

(17) خزانة الأدب 9/ 201- 202، وهذا مذهب ثعلب، وأبي علي النحوي، وابن جني، والاستراباذي، وقد نعته صاحب الخزانة بالجودة.

(18) و(19) خزانة الأدب 9/ 203.

(20) في دائرة النقد اللغوي ص 16.

(21) معاني القرآن 3/ 256.

(22) ينظر: الأضداد للصغاني: ص 228.

التوجيه عنه من غير تعليق طائفة من العلماء، منهم: ابن الأنباري (ت 328هـ) في الزاهر(23)، والإمام الرازي (ت606هـ) في تفسيره(24)، في حين انتقد هذا التوجيه عدد من العلماء منهم الطبري (ت 310هـ) إذ قال: "كان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم، وأن معنى الكلام: والذي أخرج المرعى أحوى، أي: أخضر إلى السواد، فجعله غثاء بعد ذلك..... وهذا القول، وإن كان غير مدفوع أن يكون ما اشتدت خضرته من النبات قد تسميه العرب أسود، غير صواب عندي، [و] بخلافه تأويل أهل التأويل: في أن الحرف إنما يحتال لمعناه المخرج بالتقديم والتأخير، إذا لم يكن له وجه مفهوم إلاّ بتقديمه عن موضعه أو تأخيره، فأما وله في موضعه وجه صحيح، فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير"(25).

وكذلك انتقده أبو جعفر النحاس (ت 338هـ) الذي عدّ بقاء التركيب على هيئته الأصلية أولى بالصواب، لأنه "إنما يقع التقديم والتأخير إذا لم يصح المعنى على غيره"(26).

وفضلاً عمّا سبق فإن هذا التوجيه مدفوع لسببين، أحدهما: أن دلالة الخضرة مستفادة من قوله تعالى: (المرعى)، فلا حاجة للقلب حتى نتوصل إلى الدلالة اللونية، والآخر: أن وجود الفاء الدالة على التعقيب في قوله تعالى: (فجعله غثاء أحوى) يقتضي خلاف هذا التوجيه.

---

(23) الزاهر 95/2.

(24) التفسير الكبير 31/ 140.

(25) جامع البيان في تفسير القرآن 30/ 98.

(26) إعراب القرآن 3/ 680.

د. **وقد يكون القلب لأسباب بلاغية، كقصد المبالغة والتهويل:** وهو ما يلمح في طائفة من النصوص الشعرية، كما في قول النابغة الذبياني(27):

فلا تتركنّي بالوعيدِ كأننّي إلى الناسِ مطليٌّ به القار أجرب

إذ "الأصل: مطليّ بالقار"(28)، ولكن الشاعر قَصَدَ المبالغة والتهويل، فعدل إلى القلب لتحقيق الدلالة المقصودة.

هـ. ويكثر القلب مع الأفعال التي فيها دلالة المشاركة: إذ يقع القلب بين الفاعل والمفعول. وقد أشار الفراء (ت 207هـ) إلى هذا صراحة، فعند تفسيره قوله تعالى: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) (البقرة: 37) قال: "آدم: مرفوع، والكلمات: في موضع نصب، وقد قرأ بعض القرّاء(29): (فتلقى أدمَ من ربه كلماتٌ) فجعل الفعل للكلمات، والمعنى – والله أعلم – واحد، لأنّ ما لقيك فقد لقيته، وما نالك فقد نلته، وفي قراءتنا: (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)(البقرة: 124)، وفي حرف عبدالله: (لا ينال عهدي الظالمون)"(30).

وقد ذهب ابن الضائع (ت680هـ) مذهب الفراء في توجيه الآية السابقة، إذ قال: إن "آدم صلوات الله على نبينا وعليه هو المتلقي للكلمات حقيقة، ويقرب أن ينسب التلقي للكلمات؛ لأنّ من تلقى شيئاً أو طلب أن يتلقاه، فلقيه، كان الآخر أيضا قد طلب ذلك؛ لأنه قد لقيه، ولقرب هذا المعنى قرئ بالقلب"(31).

---

(27) ديوان النابغة الذبياني: ص13.

(28) خزانة الأدب 9/ 466.

(29) هي قراءة ابن كثير، ينظر: السبعة في القراءات: ص 154.

(30) معاني القرآن 28/1.

(31) البرهان في علوم القرآن 3/ 290.

والتوجيه نفسه يمكن أن يُصار إليه في قوله تعالى: (وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ) (آل عمران: 40)، أي: بلغته(32).

و. **وتعدّ الضرورة الشعرية من أهم أسباب القلب:** سواء أكان لجوء الشاعر إليه اختياريا بحثا وراء زخم المعنى، أم اضطراريا جرياً وراء متطلبات الوزن والقافية.

وسنكتفي هنا بعرض مثال واحد؛ وذلك لأن كتب النحو والضرائر قد تناولت هذا الموضوع.

فمثلاً: الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة، وفي الخبر أن يكون نكرة، ويبقى الحكم نفسه عند دخول أغلب النواسخ على الجملة، ولكن قد يأتي في الشعر المبتدأ نكرة، والخبر معرفة، وهو قلب ما وضع عليه الكلام، لضرورة الشعر، كما في قول الشاعر(33):

كأنَّ سلافةً من بيتِ رأس يكون مزاجَها عسلٌ وماءُ

فجعل اسم كان (عسل) وهو نكرة، وجعل (مزاجها) الخبر، وهو معرفة بالإضافة إلى الضمير(34). ومثله قول الشاعر(35):

قِفي قبلَ التفرق يا ضَبَاعا ولا يَكُ موقفٌ منكِ الوداعا

وقد علقّ ابن عصفور على هذا الاستعمال بقوله: "وهذا عندي من قبيل القلب"(36).

---

(32) تأويل مشكل القرآن: ص 195.

(33) البيت لحسان بن ثابت. ينظر: ديوانه: ص 12.

(34) الأصول في النحو 1/ 67.

(35) البيت للقطامي، ينظر: ديوانه: ص 31.

(36) شرح جمل الزجاجي 1/ 355.

إن ما مضى كان أهم أسباب وقوع القلب في العربية، وسنقف الآن عند طائفة من الآيات القرآنية التي حملت على القلب.

3. **القلب في الجملة القرآنية:** يرى جمهور أهل اللغة أن القلب من ضرورة الشعر، وهذا ما أشار إليه مؤلفو الضرائر الشعرية (37)، وطائفة من النحاة، فسيبويه – مثلاً – يرى أن مجيء القلب في النثر هو من سعة الكلام، وأن الاستعمال الجيد يكون على خلافه، إلا إذا دعت ضرورة الشعر إلى ذلك، فيقول: (وأما قوله: أدخل فوه الحجر، فهذا جرى على سعة الكلام، والجيد: أدخل فاه الحجر، كما قال: أدخلت في رأسي القلنسوة، والجيّد: أدخلت في القلنسوة رأسي، ....

قال الشاعر(38):

ترى الثورَ فيها مُدخلَ الظـلّ رأسَهُ   وسائرُهُ بادٍ إلى الشمس أجمــعُ

فوجه الكلام فيه هذا، كراهية الانفصال، وإذا لم يكن في الجرّ فحدّ الكلام أن يكون الناصب مبدوءاً به"(39). أي: إنّ الشاعر لجأ إلى القلب، وكان الوجه أن يقول: مدخل رأسه الظل، فيقدّم الرأس؛ لأنه المفعول الأول(40).

وقد سارت طائفة من شرّاح الكتاب على منهج سيبويه، كالأعلم الشنتمري(41) (ت476هـ)، والصفار البطليوسي الذي يقول عن القلب: "ومنهم من

---

(37) ينظر: ضرائر الشعر للقيرواني: ص 195، وضرائر الشعر لابن عصفور: ص 266.

(38) البيت لمجهول. ينظر: الكتاب 1/ 181، وأمالي المرتضى 216/1.

(39) الكتاب 1/ 181.

(40) ينظر: النكت في تفسير كتاب سيبويه، 1/ 291، وتحصيل عين الذهب ص 146.

(41) م.ن.

أجازه في الكلام، والصحيح أنه لا يجوز إلاّ في الشعر، وما جاء منه في الكلام قليل لا يقاس عليه"(42).

بل هناك من لا يكاد يقبل بالقلب حتى في ضرورة الشعر، فهذا حازم القرطاجني (ت684هـ) يقول: إن بعض الناس يتأول ما ورد من ذلك تأويلاً فيه سلامة من القلب، ويرى أنّ ذلك – وإن بـَعُدَ في التأويل – أولى من حمل الكلام على القلب، إذ إن هذا موضع يجب أن يوقف به عند السماع، وألاّ يقاس عليه، فالواجب في فصيح الكلام أن يكون خالياً منه. ويرى حازم: أن هذا الضرب من الكلام يشبه أن يكون مما غلط فيه مَنْ ليس من عِلية فصحاء العرب وبلغائها، فحملوه على العلية منهم، فلذلك يجب ألاّ يقبل من الضرائر إلاّ ما وجد في ما اجتمعت عليه الروايات الصحيحة من كلام عِلية الفصحاء(43).

وبالمقابل فثمّة من أجاز القلب في غير ضرورة الشعر، شرط عدم اللبس، ومنهم المبرّد (ت285هـ) إذ قال: "ومن كلام العرب: إن فلانة لتنوء بها عجيزتها، ويقولون: أدخلت القَلَنسُوة في رأسي، وأدخلت الخفَّ في رجلي. وإنما يكون مثل هذا فيما لا يكون فيه لبسٌ ولا إشكال ولا وهم"(44). في حين قبله بعضهم مع التحفظ من وقوعه في القرآن الكريم، وممن سار في هذا الاتجاه ابن السراج (ت 316هـ) إذ يقول: "والنحويون يجيزون مثل هذا في غير ضرورة، فيقولون: يا سارق الليلة

---

(42) شرح كتاب سيبويه 2/ 564.

(43) ينظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ص 179-180، وقريب منه موقف المزرباني (ت384هـ) الذي عدّ القلب من عيوب الشعر. ينظر: الموشح: ص 128.

(44) ما اتفق لفظة واختلف معناه: ص 38.

أهل الدار. فأما قول الله عز وجل: (مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ) (القصص: 76) فقد احتمله قوم على مثل هذا"(45). وهو يشير في هذا إلى المبرّد(46)، والسبب في تحفظ ابن السراج أنه كان يرى أن القلب في الجملة هو "كالشاذ"(47).

وهناك من قبله مشروطاً كابن الضائع (ت 680هـ) الذي رأى أنه "يجوز القلب على التأويل، ثم قد يقرب التأويل فيصح في فصيح الكلام، وقد يبعد فيختص بالشعر"(48).

وأما عن وقوع القلب في الجملة القرآنية فقد اختلف أهل اللغة في ذلك اختلافاً شديداً، فأجازه مثلاً: أبو عبيدة(49) (ت 210هـ)، والمبرّد(50)، وابن فارس(51) (ت 395هـ)، والزمخشري(52) (ت 538هـ).

وقد تحفظ ابن السراج من القول بذلك، كما أسلفنا.

في حين تناول ابن قتيبة (ت 276هـ) الموضوع بشكل معتدل، إذ قال بالقلب بلا إسراف، ذلك أنه وجّه عليه عدداً من الآيات (53)، ولكنه رأى أن ثمّةَ نوعاً آخر

---

(45) الأصول في النحو 3/ 464.

(46) ينظر: ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص 38.

(47) الأصول 463/3، وقريب منه موقف ابن هشام الذي رأى أن اكثر وقوع القلب في الشعر، ينظر: مغنى اللبيب 2/ 775 – 778.

(48) البرهان في علوم القرآن 3/ 288.

(49) ينظر: مجاز القرآن 1/ 63-64، 110/2.

(50) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص 38.

(51) الصاحبي: ص 203.

(52) ينظر الكشاف 305/4.

(53) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ص 193-195، والآيات هي: (إبراهيم: 47)، (الشعراء: 77)، (النجم: 8)، (القيامة: 14)، (آل عمران: 40) حسب ورودها في الكتاب.

من القلب هو (ما قلب على الغلط)(54)، وأن "بعض أصحاب اللغة" (55) حمل طائفة من الآيات على مثل ذلك(56). ثم قال: إنه "لا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب الله عز وجل"(57)، إذ إن موطن ذلك هو الشعر بسبب ضرورة الوزن والقافية، "والله تعالى لا يغلط، ولا يُضطر"(58).

بيد أن طائفة أخرى أنكرت وقوعه في القرآن الكريم، كالطبري(59) (ت 310هـ) والصفار البطليوسي (60)، وحازم القرطاجني الذي رأى أن "حمل الكلام على القلب في غير القرآن – إذا أمكن حمله على الاستقامة – تعسف شديد، فكيف في الكتاب العزيز"(61)؟!.

وكذلك أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) إذ صرّح بأنه "لا ينبغي حمل القرآن على القلب، إذ الصحيح في القلب أنه مما يضطر إليه الشعر"(62).

في حين اضطرب موقف الدكتور عبدالفتاح الحموز – من المحدثين – في الموضوع، فهو يقول أولا: إنه "لا ضرورة إلى ادعاء عدم القلب لتنزيه كتابنا الكريم عنه"(63)، ثم يسعى بعد ذلك إلى استبعاد المواضع التي قيل فيها بالقلب، لأن

---

(54) م. ن: 198.

(55) م. ن: 199.

(56) م. ن:199-200، ولآيات هي (البقرة:171)، (القصص: 76)، (العاديات: 8)، (الفرقان: 74).

(57) م. ن: ص 200.

(58) م. ن: ص 203.

(59) جامع البيان، 70/20.

(60) شرح كتاب سيبويه 2/ 568.

(61) منهاج البلغاء: ص 183.

(62) البحر المحيط 8/ 63.

(63) ظاهرة القلب المكاني في العربية: ص 8.

في ذلك تفكيكاً لنظم القرآن(64). والذي يبدو لنا في هذا الموضوع أن هناك خلطاً في تناوله لدى أغلب القدماء، إذ حملوا مواضع عديدة على القلب، وهي ليست من بابه، بل هي في اغلبها من باب التقديم والتأخير.

ولعل الزركشي (ت 794هـ) لحظ هذا حين قسَّم القلب إلى قلب الإسناد، وقلب المعطوف الذي يُجعل فيه المعطوف عليه معطوفاً، والمعطوف معطوفاً عليه(65). وكان ابن قتيبة قد تنبه لذلك من قبل، إذ تناول قلب المعطوف ضمن باب المقلوب، وعدّه من المقدم والمؤخر(66).

والظاهر أن قلب المعطوف هو من باب التقديم والتأخير في غالبه، وليس من القلب في شيء، لأن:

أ. القلب يقع بين الوحدات اللغوية في الجملة الواحدة، وما حُمل على قلب المعطوف واقع بين الجمل الصغرى لا المفردات.

ب. القلب يؤدي إلى تغير الحركة الإعرابية، وبالتالي تغير الوظيفة النحوية، ولا يحدث مثل هذا في قلب المعطوف.

وقد ذكر الزركشي طائفة من الآيات التي حُملت على القلب المعطوف (67)، وكذلك فعل جامع العلوم النحوي (ت 543هـ) حين عقد باباً من كتابه (إعراب القرآن) بعنوان: "ما جاء في التنزيل معطوفاً بالواو والفاء وثم، من غير ترتيب الثاني على الأول"(68)، ذكر فيه هذا الضرب من الآيات.

---

(64) م. ن: ص 173 –179.

(65) البرهان 3/ 292.

(66) تأويل مشكل القرآن: ص 205-209.

(67) البرهان 3/ 292.

(68) إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج 1/ 95 – 105.

ومما يجدر ذكره أنه ثمّة آيات وجهت على قلب المعطوف، ولكن يمكن توجيهها توجيهاً آخر يبعدها عن القلب فيحافظ على سلامة التركيب أولا، كما أنه يتلاءم مع أصول الصنعة النحوية ثانياً. فهذا ابن جني (ت 392هـ) مثلاً، يوجه قوله تعالى: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)(النحل: 98) على إرادة الفعل، ويرى أنه لا ضرورة إلى القول بالقلب(69).

وبالمثل فعل أبو حيان الأندلسي في توجيه قوله تعالى: (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا)(الأعراف: 4) على إرادة الفعل(70). وهذا التوجيه الذي ذهبا إليه أولى من القول بقلب المعطوف؛ لأنه يحافظ على سلامة التركيب القرآني ويجلّي دقة صياغته، فضلاً عن كون التعبير بالفعل عن إرادته معروفاً في الاستعمال القرآني وفي كلام العرب(71).

ومهما يكن من أمر قلب المعطوف فهو ليس من باب القلب بل هو صورة من صور التقديم والتأخير. أما قلب الإسناد – موضوع البحث – فقد حُملت عليه آيات عديدة، سنذكر طائفة منها في الجدول الآتي مع تأويلها(72)، وسنقف عند آيتين منها للمناقشة، لأنه تمَّ عرض طائفة منها فيما سبق من البحث.

---

(69) ينظر: الخصائص 3/ 173.

(70) ينظر: البحر المحيط 4 / 268

(71) مغني اللبيب 2/ 767.

(72) ينظر مثلاً:تأويل مشكل القرآن: ص 193-198، والصاحبي ص 202 ـ 203، والبرهان 3/ 288 ـ 291.

ت	السورة ورقم الآية	نص الآية	التأويل
1.	البقرة: 9	(وَمَا يَخْدَعُونَ إِلّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)	وما تخدعهم إلا أنفسهم
2.	البقرة: 37	(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْه)	فتلقى آدمَ من ربه كلماتُ(*)
3.	آل عمران:40	(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ)	وقد بلغت الكبر
4.	المائدة: 6	(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ)	امسحوا رؤوسكم بالماء
5.	الأعراف: 179	(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ)	ولقد ذرأنا جهنم لكثير من الجن والإنس.
6.	يونس: 107	(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ)	إن يُرد الخير بك.
7.	هود: 28	(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُم)	فعُميتم عنها.
8.	يوسف:18	(وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً)	بل سولتم لأنفسكم.
9.	الرعد:38	(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)	لكل كتاب أجل.
10.	إبراهيم: 47	(فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ)	مخلف رسله وعده.
11.	مريم: 8	(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي	وقد بلغني الكبر(*).

(*) هذه قراءة ابن كثير، وقد سبق بيان تأويلها بما يبعدها عن القلب .

(*) عند الموازنة مع رقم (3) في الجدول (آل عمران: 40) يظهر مدى التعسف في التوجيه، والصحيح أنه لا قلب في الآيتين لأن الفعل مشترك بين الفاعل والمفعول؛ إذ يطلب أحدهما الآخر.

		عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً)	
.12	الأنبياء: 37	(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ)	خلق العجل من الإنسان
.13	الحج: 30	(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)	فاجتنبوا الأوثان من الرجس.
.14	الفرقان: 74	(وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)	واجعل المتقين لنا إماما
.15	الشعراء: 77	(فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)	فإني عدو لهم.
.16	القصص: 12	(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ)	وحرمنا على الراضع أن يرضعنه.
.17	القصص: 76	(وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّة)	لتنوء بهم العصبة.
.18	فاطر: 27	(وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُود)	وسود غرابيب.
.19	الجاثية: 23	(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)	أفرأيت من اتخذ هواه ألهه.
.20	الأحقاف: 20	(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ)	يوم تعرض النار على الذين كفروا
.21	ق: 19	(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ)	جاءت سكرة الحق بالموت
.22	الحاقة: 32	(ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ)	فاسلكوا فيه سلسلة
.23	القيامة: 14	(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)	بل على الإنسان من نفسه بصيرة

24.	الأعلى: 4-5	(وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۞ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى)	والذي أخرج المرعى أحوى فجعله غثاءً
25.	العاديات:8	(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)	إن حبه للخير لشديد

1. قال تعالى: (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) (القصص:76)

ذهب أبو عبيدة إلى أن في الآية قلباً، في قوله: (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة)، إذ قال: (ومجازه: ما إن العصبة ذوي القوة لتنوء بمفاتح نعمه ويقال في الكلام: إنها لتنوء بها عجيزتها، وإنما هي تنوء بعجيزتها كما ينوء البعير بحمله، والعرب قد تفعل مثل هذا)(73).

وذهب المبرد(74)، وابن عطية الأندلسي (75) (ت 541هـ) المذهب نفسه في توجيه الآية. في حين ذكر ابن هشام الأنصاري توجيه القلب هذا ثم أعقبه بالتوجيه الآخر الذي لا يرى في الآية قلباً، فقال: (إن المعنى: لتنوء العصبة بها، أي: لتنهض بها متثاقلة، وقيل: الباء للتعدية كالهمزة، أي لتنيء العصبة، أي: تجعلها تنهض متثاقلة)(76).

---

(73) مجاز القرآن 2/ 110، وينظر: 1/ 64.

(74) ما اتفق لفظه واختلف معناه: ص 38.

(75) المحرر الوجيز 11/ 332.

(76) مغني اللبيب 2/ 778.

ولم يسلم هذا التوجيه من نقد المفسرين والنحاة معاً، فالطبري يرى أن عدم القلب أسلم، لموافقته ظاهر التنزيل أولا، ولأن التعبير بهيئته الأصلية أبلغ (77). في حين ذهب الصفار البطليوسي إلى أن الباء في قوله تعالى: (لتنوء بالعصبة) للنقل بمعنى الهمزة، فيكون معنى: لتنوء بالعصبة: لتنيء العصبة(78).

وعدّ القرطبي (ت 671هـ) توجيه الباء هذا احسن ما قيل في الآية معرّضاً بتوجيه أبي عبيدة(79).

والى مثل هذا ذهب أبو حيان الأندلسي، إذ قال: (قال أبو عبيدة: هو مقلوب، واصله: لتنوء بها العصبة، أي: تنهض. والقلب عند أصحابنا بابه الشعر، والصحيح: أن الباء للتعدية، أي: لتنيء العصبة، كما تقول: ذهبت به وأذهبته، وجئت به وأجأته)(80).

ومما يجدر ذكره أن هذا التوجيه – أعني كون الباء للتعدية – قد عزي إلى الخليل وسيبويه(81)، ولم اقف عليه في الكتاب، ولا في معجم العين على الرغم من وقوف الخليل عند الآية نفسها(82).

والظاهر أن القول بأن الهمزة للنقل والتعدية أظهر من القول بالقلب حفاظاً على سلامة التركيب وبلاغته، والتزاماً بالأصل. ولهذا قال الشيخ ابن عاشور في

---

(77) جامع البيان 20/ 70.

(78) شرح كتاب سيبويه 2/ 568.

(79) الجامع لأحكام القرآن 13/ 312.

(80) البحر المحيط 7/ 132.

(81) المحرر الوجيز 11/ 334.

(82) العين 8/ 392.

نقده توجيه أبي عبيدة مستعيناً بالجناس التام: (وأما قول أبي عبيدة بأن تركيب الآية فيه قلب، فلا يقبله من كان له قلب)(83).

2. قال تعالى: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) (الأحقاف:20)

ذهب الزمخشري إلى أن معنى عرضهم على النار: تعذيبهم بها، مثل قولهم: عُرِضَ بنو فلان على السيف، إذا قُتلوا به، ومنه قوله تعالى: (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا). وجوّز أن يراد أيضا عرض النار عليهم، من قولهم: عرضت الناقة على الحوض، يريدون: عرض الحوض عليها، فقلبوا. ويدل عليه تفسير ابن عباس رضي الله عنه: يجاء بهم إليها، فيكشف لهم عنها(84).

وبمثل قوله وجّه الرازي الآية الكريمة، فاحتمل الوجهين(85).

وقبل أن نعرض لردود العلماء على هذا التوجيه نشير إلى أن الآية يمكن توجيهها على عدم القلب إتفاقاً، وهو الأصل، فنحافظ بذلك على نظم الكلام، ولا سيما أنه لا يوجد محوج إلى العدول إلى القلب فيكون التزام الظاهر هنا أولى.

وقد واجه توجيه القلب انتقاداً من لدن عدد من المفسرين، فهذا ابن المنيّر الاسكندري (ت 683هـ) يرتكز على النصوص الشرعية في ردّه، إذ يقول: (إن كان قولهم: عرضت الناقة على الحوض مقلوباً، فليس قوله: (يعرض الذين كفروا على النار) مقلوبا؛ لأن الملجئ ثـَمّ إلى اعتقاد القلب: أن الحوض جماد لا إدراك له،

---

(83) تفسير التحرير والتنوير 20/ 177.

(84) الكشاف 4/ 305.

(85) التفسير الكبير 28/ 25.

والناقة هي المدركة،فهي التي يعرض عليها الحوض حقيقة. وأما النار فقد وردت النصوص أنها حينئذ مدركة إدراك الحيوانات، بل إدراك أولي العلم، فالأمر في الآية على ظاهره، كقولك: عرض الأسرى على الأمير)(86).

في حين كان منطلق أبي حيان نحوياً في ردّه هذا التوجيه، إذ قال: ولا ينبغي حمل القرآن على القلب، إذ الصحيح ي القلب أنه مما يضطر إليه في الشعر، وإذا كان المعنى صحيحاً مع عدم القلب، فأي ضرورة تدعو إليه؟ وليس في قولهم: عرضت الناقة على الحوض، ولا في تفسير ابن عباس، ما يدل على القلب، لأن عرض الناقة على الحوض وعرض الحوض على الناقة، كل منهما صحيح، إذ العرض أمر نسبي يصح إسناده لكل واحد من الناقة والحوض(87).

وكون العرض أمراً نسبياً يصح إسناده إلى الناقة والحوض صحيح، لأنك إذا أوردت الناقة الحوض فقد (اعترضت بكلّ واحد صاحبة)(88) فيصحّ الإسناد إليهما حينئذٍ. وهنا نحتكم إلى أصول بناء الجملة ليترجح لدينا أن الحمل على الظاهر أولى من القلب، ولا سيما في الجملة القرآنية.

وصفوة القول: إن القلب الواقع في بناء الجملة العربية ظاهرة أسلوبية، أفاد منها طائفة من شعرائنا الأوائل في زيادة زخم القيمة التعبيرية للجملة الشعرية، حتى بدا أن القلب مختص بلغة الشعر، فتناوله أصحاب كتب الضرائر بوصفه ضرورة شعرية يلجأ إليها الشاعر مضطراً أو مختاراً، ليفيد من طاقاتها التعبيرية في عملية التوصيل. ثم انتقلت هذه الظاهرة على نطاق ضيّق جداً إلى لغة النثر.

---

(86) الانتصاف 4/ 305.

(87) البحر المحيط 8/ 63.

(88) تأويل مشكل القرآن: ص 194.

ونشير هنا إلى ما قاله (شبيتالر) A. Spitaler من أن (أهم الواجبات فصل الشعر عن النثر عند التحدث عن بناء الجملة، ووضع قواعد لنظامها، لأنه ما دامت أية ظاهرة نحوية لا تـُعرف إلاّ في الشعر، فإنها لا تصلح ظاهرة عامة تنطبق على النثر كذلك، غير أن هناك صعوبة معينة، وهي أن بعض التعبيرات الشعرية قد انتقلت إلى النثر كذلك، ولا يمكن الفصل الحاد بين الشعر والنثر في ذلك)(89).

فالقلب إذا ظاهرة أسلوبية تركيبية، نزعت إليها العربية (ولا سيّما في لغة الشعر) في مرحلة من تأريخها، ثم لم يعد لهذه الظاهرة بريقها بفعل التطور التركيبي في بناء الجملة العربية، حتى إن الدارسين المتأخرين ذكروا خلافاً في عدّها من (أساليب البلاغة)(90).

ولوحظ أن مجيء القلب في الأساليب النثرية كان قليلاً جداً، أو كالشاذ الذي عدلت العربية عنه، وأنه يمكننا أن نـُخرّج بعض الاستعمالات الشاذة عليه، كقولهم: خرق الثوبُ المسمارَ، وكسر الزجاجُ الحجرَ.

أما القرآن الكريم فقد خلا من أسلوب القلب في صياغة جمله – حسب وجهة نظرنا – وأن ما حمله النحاة من آيات قرآنية متأولة على القلب، تحتمل كلها المناقشة والردّ، ذلك أن للقرآن الكريم طرائقه المعجزة في صياغة الجملة، وفي توصيل المعنى، فلا حاجة إلى التمحل في حمل الآيات القرآنية على أسلوب وصفه النحاة وعلى رأسهم سيبويه بأنه مقابل للأسلوب الجيّد، ووصفه ابن السراج بأنه كالشاذ، إلى غير ذلك من النعوت التي تجعلنا نتحفظ من حمل آيات التنزيل الكريم على هذا الأسلوب.

---

(89) فصول في فقه العربية: ص 137، وينظر: الضرورة الشعرية دراسة لغوية نقدية: ص 19.

(90) البرهان 3/ 288.

Abstract

Inversio in Quranic Sentences Between its usage in Quran and Linguistic Interperatation

***Dr. Talal Yahya* (*)**

This paper deals first with the notion of inversion which means the subsitution of the position of the words in the sentences and the change of its parsing, indicating that parsing is linguistic phenomena specially in poetry.

Finally the paper discusses the views of some who thinks that there is no inversion in Quran at all.

(*) Assistant professor College of Arts / University of Mosul.